

# سُورَةُ نُوحٍ

حِينَ تَسْتَنفِذُ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

رَحْلَةً فِي صَبْرِ النَّبَوَّةِ، وَاسْتِكْبَارِ الْإِنْسَانِ  
وَمَا لَاتِ الْقَلْبِ حِينَ يَرْفُضُ النُّورُ



تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

## سُورَةُ نُوحٍ

حِينَ تَسْتَنْفِذُ الرَّحْمَةَ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

رحلةٌ في صبر النبوة، واستكبار الإنسان

ومآلات القلب حين يرفض النور

تأليف: رَدَادُ السَّلَامِيِّ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة منهجية

ليست سورة نوح سرداً تاريخياً موجزاً لطرفٍ من سيرة نبيٍّ مضى، ولا استعادةً قرآنيةً لحادثة الطوفان من أجل أن يبقى في الذاكرة خبرُ قومٍ أغرقهم المياه؛ إنما هي - في بنيتها العميقة - سورةٌ عن الإنسان أمام النداء الإلهي: كيف يُدعى، وكيف يتمنّع، وكيف تُندرج مقاومته للحقيقة من الإعراض العابر إلى الاستكبار الراضخ، وكيف يمكن للقلب أن يسمع الحق مراراً حتى يصبح تكرر سماعه - إذا لم يستجب - سبباً في ازدياد صلابته بدل أن يكون سبباً إلى رقيقته. ولذلك فإن الطوفان ليس مركز السورة كما قد يبدو لأول وهلة؛ مركزها الحقيقي هو ذلك الزمن الطويل الذي سبق الطوفان، حين ظل نوح عليه السلام واقفاً بين قومه، يحمل إليهم كلمة النجاة في الليل والنهار، في السر والجهر، بالتحذير حيناً ويفتح أبواب الرجاء حيناً، حتى لم يبق طريق إلى قلوبهم يمكن أن تسلكه الدعوة إلا سلكته.

ومن هنا يقوم هذا الكتاب على قراءة السورة بوصفها بناءً متصلاً لحركة الدعوة وحركة القلب في آنٍ واحد؛ فنحن لا نقف مع الآيات باعتبارها جزءاً منفصلاً، ولا نستخرج من

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

كل آية خاطرةً تنتهي بانتهاء سطرها، وإنما تتعقب النظم الداخلي للسورة، وننظر كيف تحمل الآية ما قبلها إلى ما بعدها، وكيف تتصاعد حركة المعنى من التكليف الأول: ﴿أَنْ أَذِرَ قَوْمَكَ﴾، إلى التقرير المرير بعد استفاد الوسائل: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾، ثم إلى تشريح باطن الاستكبار، ثم إلى استدعاء الكون شاهداً، ثم إلى كشف دور المال والرموز والموروث والمكر في صناعة الرفض الجماعي، حتى تبلغ السورة نهايتها حيث يصبح الدعاء بالهلاك حكماً على مشروعٍ أصرَّ على أن يعيد إنتاج الضلال، لا انفجار غضبٍ شخصي من نبي أُوذِيَ.

وسنحاول في هذه القراءة أن نبقي ظاهر النص القرآني وسياقه ونظمه هو الأرض الصلبة التي ينطلق منها التأمل؛ فلا نحمل الآية ما لا تحتل، ولا نحول القصة إلى رموز سائبة تفصل عن حقيقتها، وإنما نصت أولاً إلى الألفاظ في مواضعها: لماذا قال نوح: ﴿يَا قَوْمُ﴾ وهو يواجه من كذبه؟ ولماذا جمع بين الليل والنهار، والجهر والإسرار؟ ولماذا جاء الاستغفار في قلب خطابه لقوم بلغ منهم العناد ما بلغ؟ ولماذا انتقل من خلق الإنسان أطواراً إلى السماوات والقمر والشمس ثم إلى الأرض وسبلها؟ ولماذا يذكر القرآن المال والولد مرةً بوصفهما من المدد الممكن، ثم يذكرهما بعد ذلك بوصفهما مما لم يزد صاحبه إلا خساراً؟ إن هذه التحولات ليست عابرة، بل هي جزء من هندسة السورة، وفيها يتشكل معناها الكلي.

## سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

وستعامل مع شخصية نوح عليه السلام لا بوصفها مثلاً وعظيماً مجرداً للصبر، بل بوصفها تجسيداً قرآنياً لمعنى العبودية حين تطول الطريق ولا تظهر الثمرة. فثمة فارق كبير بين أن تصبر على أذى تعرف نهايته، وبين أن تظل أميناً لرسالتك في زمن لا ترى فيه إلا مزيداً من الرفض؛ وأن تكرر النداء لا لأنك عاجز عن ابتكار غيره، بل لأن الحق لا يتغير وإن تغيرت طرائق عرضه؛ وأن تظل تريد الخير لمن جعل أصابعه في أذنيه حتى لا يسمعك. ومن هذا المعنى نتولد أسئلة تمس كل صاحب رسالة وكل إنسان يحمل قيمة يؤمن بها: ما معيار النجاح؟ هل هو استجابة الناس، أم صدق أداء الأمانة؟ متى يكون تغيير الأسلوب حكمة، ومتى يتحول إلى تغيير للمضمون؟ وكيف يحتفظ الداعية بقلب رحيم تجاه من يقاوم دعوته دون أن يذيب الحقيقة إرضاءً له؟

وفي المقابل تكشف السورة عن تشریح شديد الدقة لآليات رفض الهداية. فالقوم لا يقولون فقط: لا نؤمن؛ بل يصنعون بأجسادهم مشهد الرفض: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾، ثم يضيف القرآن إلى المشهد الحسي باطنه النفسي: ﴿وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾. وهكذا ينقلنا من الأذن إلى القلب، ومن الحركة الظاهرة إلى الدافع المستتر. فالإنسان قد لا يرفض الحقيقة لأنها غير مفهومة، بل لأنها مفهومة أكثر مما يريد؛ إذ يدرك أن قبولها سيطلب منه هدم بناء كامل من المصالح والعادات والصورة التي صنعها لنفسه.

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ الدَّاءِ

ومن هنا يصبح الكبر في السورة ليس عيباً أخلاقياً فحسب، بل عائقاً معرفياً يمنع الإنسان من أن يرى ما صار الاعتراف به مؤلماً لكبريائه.

وسيحتمل الاستغفار في هذه القراءة موضعاً مركزياً؛ لأن قوله تعالى على لسان نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ يأتي بعد مشاهد شديدة من الإعراض، وكأن السورة تريد أن تقرر أن باب الرجوع أوسع من تاريخ الإنسان مع الخطأ ما دام زمن التكليف قائماً. وليس الاستغفار هنا كلمة تُقال على هامش الحياة، بل حركة انقلاب في جهة القلب: أن يتوقف الإنسان عن الدفاع عن خطئه، وأن يخرج من صف نفسه حين تخالف الحق، وأن يعود إلى ربه وهو يعلم أن الذي أمهله كل هذا الزمن لم يكن يريد أن يهلكه، بل كان يفتح له من خلال النبي منفذاً بعد منفذاً إلى النجاة.

ومن المعاني التي سنقف عندها كذلك علاقة الإنسان بالكون في السورة؛ فنوح لا يحاصر قومه بخطاب الوعيد، بل يأخذ بأيديهم إلى أجسادهم وإلى السماوات والقمر والشمس والأرض، كأنما يقول لهم: إن الرسالة التي أتيتم بها ليست غريبة عن العالم الذي تعيشون فيه؛ فالكون كله يشهد للرب الذي أدعوكم إليه. وهنا يصبح النظر في الخلق علاجاً لتضخم الذات: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، فما الذي يدعو مخلوقاً انتقل من ضعف إلى ضعف ثم إلى قوة مؤقتة أن يستكبر على خالقه؟ وتصبح السماوات والأرض ليست خلفية صامتة للقصة،

## سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

بل حججاً كونيةً تعيد الإنسان إلى جمعه الحقيقي، حتى لا يتوهم أن صغره المكاني يمنحه عظمةً معنويةً تخوله أن يعارض سلطان الله.

وستقف أيضاً أمام المجتمع الذي تصفه السورة، لأن الضلال فيها لا يبقى قراراً فردياً، بل يتحول إلى بنية اجتماعية تحرس نفسها: أناس يتبعون من زادهم المال والولد خساراً، وقيادات تكرر مكرّاً كباراً، وخطاب جماعي يقول: ﴿لَا تَذَرْنَّ الْهَتَكَ﴾. وهنا تنتقل المشكلة من خطأ فكري إلى منظومة مصالح وذاكرة ورموز وهوية جمعية. فالباطل إذا طال عمره لا يبقى مجرد رأي؛ قد يصبح تقليداً تحرسه العاطفة، ومصلحة تحرسها السلطة، ورمزاً يهاب الناس مساءلته. وهذه إحدى أعمق إشارات السورة إلى أن تحرير الإنسان من الوثن لا يكون دائماً بتخليم حجر، بل قد يبدأ بتحرير وعيه من شيء اكتسب في نفسه قداسةً لا يستحقها.

أما دعاء نوح في ختام السورة، فلن نقرأه منفصلاً عن القرون التي سبقتة؛ لأن اقتطاع النهاية من الرحلة يظلم النبي ومعنى السورة معاً. لقد سبق الدعاء ليلٌ ونهار، وجهرٌ وإسرار، وترغيبٌ واستغفار، واستدعاءٌ لآفاق والأنفس؛ ثم جاء الحكم بعد أن صار القوم لا يكتفون بالضلال بل يصنعونه في غيرهم ويورثونه لمن بعدهم. ولذلك فإن قوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ليس انفعالاً بشرياً مجرداً، وإنما خاتمة مسار نبوي بلغ - بوحى الله

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةَ أَبْوَابَ الدَّاءِ

وحكمه - حدًا لم تعد معه المسألة مسألة أفراد أخطؤوا، بل مشروعًا يستولد الفجور والكفر جيلاً بعد جيل.

ومع كل هذا الثقل، تنتهي السورة بالمغفرة: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾. وهذه النهاية في ذاتها منهج تربية؛ فالنبي الذي بذل ذلك العمر كله لا يقف في آخر الطريق مستنداً إلى أعماله، بل مستنداً إلى رحمة ربه. يبدأ بنفسه طالباً الغفران، ثم والديه، ثم من دخل بيته مؤمناً، ثم يفتح الدعاء على اتساع الأمة: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. كأن رحلة نوح كلها - على طولها وشدتها - لم تجعل قلبه يدور حول ذاته، بل وسعته حتى صار بيتاً للدعاء.

ومن هنا فإن هذا الكتاب لا يريد أن يقرأ سورة نوح من خارجها، بل أن يمشي داخلها ببطء؛ يراقب نداء النبي، ثم فرار القوم، ثم تبدل وسائل الخطاب، ثم انفتاح أبواب الاستغفار، ثم اتساع النظر إلى الكون، ثم تكشف شبكات المكر والاتباع، حتى تأتي النهاية بوصفها ثمرة لكل ما سبق، لا حادثة منفصلة عنه. وسنحاول أن يكون التأمل تابعاً للنص لا متقدماً عليه، وأن تحمل اللغة الأدبية المعنى ولا تستبد به، وأن يبقى الجمال خادماً للحقيقة لا ستاراً عليها.

## سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

ولعل السؤال الذي سيصحبنا في جميع الفصول هو السؤال الذي وضعه القرآن في قلب

السورة:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا؟﴾

فن هذه الآية يمكن أن نرى مأساة قوم نوح كلها: عرفوا أن لهم ربًّا، لكن لم يجعلوا له في قلوبهم من الوقار ما يهزم كبرهم؛ ورأوا آياته، لكن لم يسمحوا للآيات أن تعيد ترتيب موازينهم؛ وسمعوا نبيّه، لكنهم أحبوا ما اعتادوه أكثر مما أحبوا النجاة. ولذلك ليست المسافة بين الإيمان والكفر دائماً مسافة معلومات، بل قد تكون مسافة وقار: أي شيء يحتل المركز الأعلى في القلب؟ وأي صوت إذا تعارضت الأصوات كان له القرار الأخير؟

لهذا سندخل سورة نوح لا لنشاهد الطوفان من شاطئ التاريخ، بل لنبحث عن اللحظة التي يبدأ فيها الطوفان قبل الماء: حين يغرق القلب في ذاته، وحين تصبح العادة أقوى من البرهان، وحين يتحول الموروث إلى صنم، وحين يصبح المال دليلاً على الحق، وحين يسمع الإنسان النداء ثم يضع أصابعه في أذنيه.

## سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

وسنبحث، في الجانب الآخر، عن السفينة قبل الخشب: تلك السفينة التي تبدأ في القلب يوم  
يعترف الإنسان بحجمه، ويوقر ربه، ويستغفر، ويستجيب، ويدرك أن النجاة لم تكن يوماً في  
أن يكون الماء بعيداً عنه، بل في أن يكون هو قريباً من الله.

## الفصل الأول

### الرحمة التي تأتي في صورة إنذار

#### الآية الأولى

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

تبدأ السورة بالإرسال، لأن الإنسان لا يُترك في متاهة المصير بلا دليل، ولا يؤخذ بالعذاب قبل أن يُفتح له طريق النجاة؛ فقبل الماء كان هناك صوت، وقبل العقوبة كان هناك نبي، وقبل انغلاق الأبواب كان باب مفتوح اسمه الإنذار. والإنذار في لغة الوحي ليس تهديداً متلذذاً بالخوف، بل رحمة تعرف أن وراء الطريق هاوية فتصرخ في السائر قبل أن يبلغها. ولهذا أرسل الله نوحاً «إلى قومه»؛ أولئك الذين يعرف وجوههم وأسماءهم وعاداتهم وأحزانهم، فهو لا يأتيهم كغريب يريد إدانة مجتمع لا يعرفه، وإنما كواحدٍ منهم يحمل إليهم ما ينقذهم منهم.

والعجيب أن أول ما يؤمر به النبي هو أن يسبق العذاب بالكلمة؛ كأن الوحي يعلمنا أن الله يحب أن تصل الرحمة قبل العقوبة، وأن الإنسان لا يهلك لأن الله لم يهلكه، وإنما يهلك حين

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

تأتيه الدلالة ثم يصير على السير في الاتجاه الآخر. إن وراء قوله: ﴿مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾

مساحة زمنية كاملة من الإهمال، والفرصة، وإمكان الرجوع؛ فالقدر القادم لم يقع بعد،

والباب لم يغلق بعد، وما دام التحذير حاضراً فالأمل حاضر.

كم من عذاب في الحياة يسبقه إنذار لا نفهم رحمته إلا بعد فواته؛ وجع ينهنا، نصيحة

تزعجنا، آية تهزنا، حادثة توقظنا، إنسان صالح يقول لنا كلمة لا نحب سماعها. وكثيراً ما

يتعامل الإنسان مع الإنذار بوصفه قسوة، ثم يكشف متأخراً أنه كان آخر أشكال اللطف.

#### الآية الثانية

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

لم يقل نوح: يا أعدائي، ولا يا من كذبتموني، ولا يا أهل الضلال؛ قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾، وما

تزال رابطة الانتماء حاضرة رغم أنهم يرفضونه، لأن المصلح الحق لا يسمح للخلاف في

الموقف أن يحول قلبه إلى كلمة من الكراهية. إنه يخالفهم لكنه ما زال يريدهم، ويتأذى منهم

لكنه لا يريد لهم الأذى، ويرى خطأهم دون أن يفقد إحساسه بأنهم قومه.

ثم يقول: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾؛ وهذه اللام الصغيرة تحمل معنى بالغاً: أنا في صف نجاتكم لا في صف

هلاككم، وما أقوله ليس انتصاراً لنفسي عليكم، وإنما حماية لكم من أنفسكم. وهنا يظهر الفرق

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

بين الناصح والمتشفي؛ فالمتشفي يفرح حين يقع من خالفه، أما النبي فيقف أمام قومه لينع وقوعهم، ولو أرهقوه، ولو سخرؤا منه، ولو ردؤا يده كل مرة مدها إليهم.

وهو ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، لا يغلف الرسالة في غموض يحرم الناس من فهمها، ولا يصنع حولها طقوساً تخفي حقيقتها، بل يبين: هذا هو الطريق، وهذه عاقبته، وذلك هو الطريق، وهذه نهايته. إن من رحمة الحق أنه واضح في القضايا الكبرى؛ قد تختلف تفاصيل الحياة وتداخل، لكن أصل القضية شديد البيان: رب يعبد، وأمر يتبع، وعمر ينتهي، ومصير ينتظر.

### الآية الثالثة

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾

ها هي الرسالة كلها تُردّ إلى ثلاثة أصول: اعبدوا الله، واتقوه، وأطيعوا. تبدأ بالعبادة لأنها تصحح مركز الإنسان في الوجود؛ فلا خلاص لمن ظن أنه مركز الكون، ولا استقامة لمن عبد رغباته ثم زعم أنه حر. العبادة ليست زيادة دينية تضاف إلى الحياة، بل إعادة الإنسان إلى حجمه الحقيقي: عبدٌ لرب، محدودٌ أمام مطلق، محتاجٌ أمام غني، مخلوقٌ أمام خالق.

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

ثم تأتي التقوى، لأن العبادة إذا بقيت طقساً خارج القلب لم تصنع إنساناً جديداً. التقوى هي حضور الله في لحظة القرار، أن يكون لله وزن في قلبك حين تستطيع أن تخون ولا يراك الناس، وحين تقدر أن تظلم ولا يستطيع المظلوم ردك، وحين تناديك شهوة لا يحول بينك وبينها إلا علمك أن الله يعلم. ولهذا كانت التقوى انتقلاً من صورة العبادة إلى روحها.

ثم ﴿وَأَطِيعُونَ﴾، لأن الإيمان بالله لا يتحول إلى حياة إلا عبر اتباع الوحي الذي جاء به الرسول. وما أكثر من يريد رباً يؤمن به، لكنه لا يريد أمراً يلتزم به؛ يريد الإحساس الروحي ولا يريد التكليف، يريد الله مواسياً في المصيبة ولا يريده أمراً عند الشهوة. فجاءت الرسالة متكاملة: عبودية تحدد المرجع، وتقوى تراقب الداخل، وطاعة تضبط المسار.

#### الآية الرابعة

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ما أسرع ما يفتح الإنذار باب المغفرة! لم يقل لهم: لأنكم أذنبتم فقد انتهى كل شيء، وإنما جعل الذنب نفسه موضعاً يمكن أن تدخل منه الرحمة إذا تاب صاحبه. إن الوحي لا يعلم الإنسان أن ماضيه سجن أبدي، بل يعلمه أن التوبة تستطيع أن تغير معنى الماضي كله؛ فالذنب

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

الذي كان سبباً للهلاك يمكن أن يتحول بالندم والرجوع إلى سبب لانكسار القلب بين يدي الله.

ثم يأتي الحديث عن الأجل ليهز وهم الإنسان الأكبر: وهم الوقت المفتوح. نحن نعيش غالباً كما لو أن هناك دائماً فرصة أخرى؛ سنعود لاحقاً، ونصلح لاحقاً، ونستغفر لاحقاً، ونرتب علاقتنا بالله حين تهدأ الحياة. غير أن الحياة لا تهدأ، والأجل لا يستأذن مشاريعنا، والساعة التي نؤجل إليها قد لا تصل إلينا أصلاً.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ جملة تنزع من الإنسان سلطة الوهم. تستطيع أن تؤخر عملاً، وأن تؤجل سفراً، وأن تغير موعداً، لكن هناك موعداً واحداً لا يملك أحد تحريكه لحظة واحدة. ولذلك فالحكمة ليست أن تعرف أن الموت سيأتي؛ الجميع يعرف ذلك، بل أن تعيش تحت تأثير هذه المعرفة. وهذا هو الفرق بين معلومة الموت ووعي الموت.

## الفصل الثاني

### نبيُّ يطرق كل أبواب القلب

#### الآية الخامسة

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾

هنا يفتح نوح قلبه لربه. ليست شكوى من التكليف، بل تقرير العبد الذي بذل ما استطاع. ليلًا ونهارًا؛ أي إنه لم يجعل الدعوة نشاطًا موسميًا يؤديه في الوقت الملائم ثم يعود إلى راحته، بل حمل الرسالة معه في دوران الزمن كله. الليل الذي يسكن فيه الناس كان فيه داعيًا، والنهار الذي يتحركون فيه كان فيه داعيًا؛ كأن قلبه لم يكن يعرف إجازة من الرحمة.

وهذه الآية تعيد تعريف الصبر. فالصبر ليس مجرد تحمل الألم بصمت، وإنما الاستمرار في فعل الصواب رغم بقاء الثمرة. كثيرون يستطيعون البدء؛ قليلون يستطيعون أن يظلوا واقفين حين لا تظهر النتائج. الحماسة الأولى سهلة، أما أن تبقى أمينًا بعد سنوات من الرفض، فهناك يظهر معدن القلب.

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

وفي حياة الإنسان أبواب لا تفتح من الطرق الأول، وحكم لا تنضج من المحاولة الأولى، وأناس لا يصل إليهم الخير من العبارة الأولى. ومن استعجل الثمرة ربما كسر الغصن قبل أن يثمر. نوح يعلمنا أن وظيفتنا في مواضع كثيرة ليست أن نضمن النتيجة، بل أن نضمن صدق المحاولة.

### الآية السادسة

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾

يا لها من مفارقة موجعة: يدعوهم لينجوا، فيهربون من الذي ينجيهم. ليس كل فرار في الحياة فراراً من الخطر؛ أحياناً يفر الإنسان من علاجه، ومن الحقيقة التي تحرره، ومن الكلمة التي تكشف له مرضه. لأن النفس لا ترفض الحقيقة دائماً لعدم وضوحها، بل لأنها تعرف أحياناً أن قبولها سيطلب منها أن تتغير.

كان دعاء نوح يقترب منهم، وكانوا يبتعدون؛ وكلما جاءهم الضوء أسرعوا إلى زاوية أعمق من الظلام. وهنا سر خطير في النفس البشرية: أن المرء إذا أطال رفض الحق قد يصبح وصول الحق إليه سبباً لمزيد من العناد، لا لأن الحق تغير، بل لأن القلب كوّن حول نفسه دفاعات تمنعه من الاعتراف بأنه كان مخطئاً.

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

إن الإنسان قد ينجي خطأه كما ينجي ممتلكاته، لأنه استثمر فيه سنوات من الكبر والمواقف والمصالح. فإذا جاءت الحقيقة لم يرها فرصة للتحرر، بل تهديداً لهوية صنعها حول الباطل. وهكذا يصبح الفرار من الداعي في حقيقته فراراً من لحظة مواجهة النفس.

### الآية السابعة

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾

هذه واحدة من أقصى الصور النفسية في القرآن: الرحمة تقف أمامهم وهم يسدون منافذها بأيديهم. نوح لا يدعوهم ليملكهم، بل ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ ومع ذلك يجعلون أصابعهم في آذانهم. إن مأساة الإنسان ليست دائماً في أن أبواب الله مغلقة، بل في أنه قد يغلق هو منافذه إليها. ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾؛ صورة تكاد ترى فيها أجساداً تختبئ من الكلمة، كأن الحقيقة شيء يمكن الهرب منه تحت قطعة قماش. وهم لم يكتفوا بعدم الاستجابة، بل ﴿وَأَصْرُوا﴾؛ والإصرار أخطر من الخطأ، لأن الخطأ حادثة، أما الإصرار فهو تحويل الحادثة إلى هوية.

ثم يكشف القرآن الجذر: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾. إن المشكلة لم تكن في الأذن، وإنما في القلب؛ فالآذان المغلقة مجرد مظهر لذات متضخمة لا تريد أن تخني للحق. وكم من إنسان

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

يسمع الحجة كاملة، لكنه لا يستطيع قبولها لأن قبولها يعني الاعتراف بأن شخصاً آخر كان على صواب، وأنه نفسه يحتاج إلى مراجعة. وهكذا يصبح الكبر جداراً معرفياً قبل أن يكون رذيلة أخلاقية.

### الآية الثامنة

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾

بعد الرفض لم ينسحب نوح، بل غير الأسلوب. وهذه من فقه الدعوة العميق: الثبات على المضمون لا يعني الجمود في الطريقة. قد لا تصل الكلمة سرّاً فتقال جهراً، وقد لا يصل الخطاب العام فتُطرق أبواب الأفراد، وقد يحتاج العقل إلى حجة والقلب إلى صورة والوجدان إلى تذكير.

إن الداعية الذي يقدر وسيلته قد يظن فشل الوسيلة فشلاً للحقيقة، بينما نوح يعلمنا أن الرسالة أثبتت من أدواتها. الثبات ليس أن تعيد العبارة نفسها بالصوت نفسه، بل أن تظل أميناً للحقيقة وأنت تبحث لها عن أنسب طريق إلى الإنسان.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾

استنفد نوح طرفي الخطاب: الإعلان والإسرار. وقف أمام الجماعة، ثم اقترب من الفرد؛ رفع صوته حيث يحتاج الجمع إلى سماع الموقف، وخفضه حيث يحتاج القلب إلى حوار لا يسمعه أحد. فما ترك لهم باباً يمكن أن تدخل منه الهداية إلا طريقه.

وهذه الآية تعلننا أن الناس لا يفتحون بمفتاح واحد. هناك من توقظه الكلمة العامة، وهناك من لا يستطيع أن يخلع قناعه إلا في حديث خاص. وقد تنجح العبارة نفسها على منبر وتفشل في قلب، بينما تنجح همسة صادقة حيث عجز خطاب طويل.

وهنا تبلغ حجة نوح ذروتها: لم يكن رفضهم نتيجة نقص في البلاغ؛ فقد تنوع البلاغ حتى أحاط بهم من كل جهة. وحين تستنفد الرحمة وسائل الوصول، يبدأ السؤال يتحول من: لماذا لم تصل الرسالة؟ إلى: لماذا يصر القلب على ألا يستقبلها؟

## الفصل الثالث

### الاستغفار: حين تُصلح السماء ما أفسده القلب

#### الآية العاشرة

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾

بعد كل هذا العناد لم يقل لهم نوح: انتهى أمركم، بل قال: استغفروا. ما أوسع هذا الدين الذي يظل يعرض المغفرة على من ظل زمنًا طويلاً يرفضها! وكأن الله يريد من عباده أن يعرفوا أن كثرة الخطايا لا تستنفد خزائن رحمته، وإنما الذي يحرم الإنسان منها أن يصبر على البقاء بعيداً.

ولم يقل: إنه يغفر فحسب، بل ﴿كَانَ غَفَّارًا﴾، صيغة تمتلئ بالتكرار والسعة؛ فالغفران ليس فعلاً طارئاً على كرم الله، تعالى الله، وإنما باب يعرفه عباده كلها عادوا إليه. نحن الذين نمل من أنفسنا، أما رحمة الله فلا تُقاس بضيق صدور البشر.

والاستغفار هنا ليس حركة لسان مع بقاء القلب في الاتجاه نفسه؛ إنه رجوع. فالذي يقول «أستغفر الله» ثم يحتفظ بعلاقته الحميمة بالذنوب لم يفهم بعد سر الكلمة. الاستغفار الحقيقي

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

لحظة يُخرج فيها الإنسان نفسه من صف المدافعين عن خطئه، ويقف في صف الحقيقة ضد نفسه.

الآية الحادية عشرة

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾

حين يصلح ما بين القلب وربه، تتغير علاقة الإنسان بالعالم من حوله. يربط نوح الاستغفار بالمطر، وكأنه يعيد ترتيب تصور القوم للأسباب: السماء ليست آلة صماء، والكون ليس منفصلاً عن سلطان خالقه، والنعم ليست مجرد نتائج مادية مستقلة عن إرادة الله.

﴿مِدْرَارًا﴾؛ مطراً متتابعاً كثير الخير. ما أبدع الانتقال من جفاف الذنب إلى انسكاب السماء! فالاستغفار في الروح أشبه بفتح نافذة كانت مغلقة؛ ليس معناه أن كل مستغفر سيحصل حتماً على ما يشتهي من صور الدنيا، لكن السورة تبني أصلاً عظيمًا: أن الطاعة ليست خصماً للعمران، وأن الرجوع إلى الله ليس انسحاباً من الحياة، بل تصحيح للعلاقة بمصدر الحياة.

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

وفي الآية أيضاً كسر للوهم الذي يجعل الإنسان يبحث عن البركة في كل مكان إلا في إصلاح نفسه. قد نحاول إصلاح الخارج كله ونترك الداخل الذي يفسد علينا معنى الخارج. وأحياناً يكون أول إصلاح المطر أن يصلح القلب الذي يستقبل المطر.

### الآية الثانية عشرة

﴿وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾

يعرض عليهم نوح ما تعرف نفوسهم قيمته: المال، والبنون، والجنت، والأنهار. ليس لأن غاية الدين أن يتحول الإنسان إلى جامع للنعم، بل لأن الوحي يخاطب الإنسان في حاجاته كلها، ويعلمه أن الله الذي يطلب منه السجود هو نفسه رب الزرع والماء والذرية والرزق.

لكن ثمة مفارقة قادمة ستكشفها السورة: المال والولد اللذان يمكن أن يكونا مدداً من الله قد يتحولان إذا انفصلا عن الشكر إلى سبب للخسارة. النعمة ليست خيراً بذاتها في كل حال؛ إنما قيمتها في الوجهة التي تقود صاحبها إليها. قد يمنحك الله شيئاً فيرفعك به، وقد يحمله قلبك على غير مراده فيثقلك.

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

وكم يبدو الإنسان فقيراً حين يظن أن قربه من الله يحرمه الحياة! ها هو نوح يعرض على

قومه إيماناً يفتح القلب والسماء والأرض معاً؛ لأن الله ليس رب المسجد وحده، بل رب

المطر والولد والحقل والمستقبل.

## الفصل الرابع

### لماذا لا يمتلئ القلب بوقار الله؟

#### الآية الثالثة عشرة

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾

هذه الآية تدخل مباشرة إلى أصل الأزمة: ما لكم؟ ما الذي حدث في داخلكم حتى صار الله، خالقكم، بلا الوزن الذي يليق بجلاله في حساباتكم؟ إن كثيراً من الانحرافات ليست في جوهرها إلا خللاً في «الوقار»؛ أن يعرف الإنسان الله بلسانه، لكن لا يكون لهذه المعرفة ثقل حقيقي حين يختار.

وقار الله هو أن لا يكون أمره هامشاً في حياتك، وأن لا تكون مراقبته فكرة بعيدة لا تدخل غرفة القرار. هو أن يمتلئ القلب بعظمة الرب حتى تصغر أمامه سطوة البشر وإغراء الشهوة وضغط الجماعة.

والمفارقة أن الإنسان يملأ قلبه بوقار أشياء كثيرة: يخشى رأي الناس، ويحسب لمديره حساباً، ويرتب كلماته أمام أصحاب النفوذ، ثم يدخل في معصية الله بقلب بارد. هنا يختل

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

الميزان؛ ليست المشكلة أنه لا يعرف أن الله عظيم، بل أنه لم يسمح لهذه المعرفة أن تصبح قوة حاكمة في نفسه.

الآية الرابعة عشرة

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾

كيف لا توقرون من حملكم من طور إلى طور؟ كنتم شيئاً لا تذكرونه، ثم نطفة، ثم جنيناً، ثم طفلاً لا يستطيع أن يدفع عن نفسه جوعاً ولا برداً، ثم اشتد عودكم فظننتم أن القوة ملككم. إن الإنسان ينسى ضعفه القديم سريعاً حين تكتمل أدوات قوته.

﴿أَطْوَارًا﴾ كلمة تهدم غرور الثبات؛ أنت لم تكن دائماً كما أنت، ولن تبقى كما أنت. جسدك نفسه سجل طويل من التحولات، وكل طور يشهد أن يداً فوق إرادتك كانت تنقلك بينما لم تكن تملك تصميم نفسك ولا تسريع نموك ولا وقف تغيرك.

ومن تدبر أطواره استحيا من كبره؛ فما أعجب مخلوقاً بدأ عاجزاً، وينتهي عاجزاً، وبين العجزين يمتلئ غروراً!

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾

بعد أن أعادهم إلى داخل أجسادهم، يرفع أبصارهم إلى السماء. كأن طريق معرفة الله يمتد من أقرب نقطة في الإنسان إلى أبعد ما تدركه عيناه. لا تحتاج أن تسافر خارج الوجود لتجد دلائل القدرة؛ أنت نفسك آية، وفوقك آيات.

والسماوات «طباقاً» تزرع في النفس شعور النظام؛ هذا الكون ليس كومة من الأشياء الملقاة بلا معنى، وإنما خلق محكم تتراءى فيه آثار الحكمة والتقدير. وأمام هذا الاتساع يصبح كبر الإنسان مضحكاً ومؤلماً معاً؛ نقطة صغيرة على أرض صغيرة، ثم يقف داخل هذه المساحة الضئيلة ليجادل خالق السماوات.

إن التدبر في الكون ليس ترفاً جمالياً في القرآن، بل علاج للذات المتضخمة؛ فما إن يتسع المشهد حتى يعود الإنسان إلى حجمه.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

القمر نور، والشمس سراج؛ وكل منهما يؤدي رسالته في موضعه. ينظر الإنسان إلى السماء كل يوم حتى تألف عينه المعجزة، والألفة واحدة من أكبر حجب الإدراك. نحن لا نتوقف عن رؤية النعم لأن النعم اختفت، بل لأن تكرارها جعلها عادية في أعيننا.

لكن القرآن يعيد للأشياء دهشتها: انظر إلى القمر كما لو أنك تراه أول مرة، وإلى الشمس وهي تدخل صباحك بلا موعد منك، وإلى الضوء الذي يملأ الأرض دون فاتورة يرسلها إليك أحد. إن أعظم النعم تلك التي صارت ثابتة إلى درجة أننا نسينا أنها عطايا.

ومن عرف السراج الذي أضاء له نهاره، كان جديراً أن يبحث عن نور يهدي قلبه.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾

اختيار لفظ ﴿أَنْبَتُكُمْ﴾ يقرب الإنسان من سر الأرض التي يمشي عليها؛ فهو ليس كائنًا منفصلاً عن هذا العالم، جسده من عناصره، وغذاؤه منه، وإليه يعود. وما أرق هذه

## سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

الصورة في تذكير المتكبر بأصله: أنت شبيه بالنبته أكثر مما يوحى لك غرورك؛ تحتاج الماء والهواء والحرارة، وتمو بقدر، ثم يأتي عليك زمن الذبول.

لكن النبتة لا تخبجل من حاجتها، والإنسان هو الذي يتوهم أن الاحتياج نقص. والحقيقة أن العبودية تبدأ عندما يصلح المرء نفسه مع حقيقة افتقاره: أنا محتاج، والله هو الغني.

### الآية الثامنة عشرة

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾

من الأرض وإلى الأرض، ثم منها مرة أخرى. الموت في المنظور القرآني ليس خروجاً عن النظام، بل مرحلة داخله؛ ذلك الجسد الذي نبت من الأرض يعود إليها، ولكن الرحلة لا تنتهي عند التراب.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛ يقين البعث يأتي بعبارة لا تترك للمصير باباً للذوبان في العدم. ومن أدرك أنه سيُخرج، لم يعد القبر في وعيه حفرة النهاية، وإنما باباً بين عالمين.

وهنا يتغير معنى الحياة كلها؛ فإذا كنت ستخرج مرة أخرى، فإن أفعالك لا تختفي حين تختفي آثارها من ذاكرة الناس. هناك لقاء يسترد كل ما ظننت أن الزمن دفته.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾

الأرض التي لا يلتفت إليها الإنسان لأنه يطؤها كل يوم تُذكر بوصفها نعمة. إن الوحي يربّي عيناً ترى المنح في الأشياء التي تبدو بديهية: أن يكون تحت قدميك موضع صالح للحياة، للحركة، للبناء، للسفر، للزراعة.

وكلمة ﴿لَكُمْ﴾ تعيد الإحساس بالهبة؛ لم تصنعوا الكوكب الذي تسكنونه، ولم توقعوا عقداً مع الأرض لتثبت تحتكم، ومع ذلك تمشون عليها آمنين. وحين يكثر شعور الاستحقاق تقل مساحة الشكر؛ فالإنسان الذي يظن أن كل شيء حق طبيعي له لا يستطيع أن يرى العطايا.

الآية العشرون

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾

لم يجعل الله الأرض بساطاً لتقيموا عليها جامدين، بل لتسلكوا. الحياة حركة، والطرق المفتوحة جزء من النعمة. والغريب أن الإنسان الذي أعطي طرق الأرض قد يرفض طريق

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

السماء؛ يسافر بعيداً طلباً للرزق، ويحتمل وعشاء المسافات من أجل المال، ثم يستثقل خطوات قليلة في طريق إصلاح قلبه.

﴿سُبُلًا جِبَاً﴾، طرقاً واسعة؛ وكأن الأرض تقول للإنسان: تحرك. والوحي كذلك يفتح له سبيلاً واسعاً إلى ربه، لكن المأساة ليست في انعدام الطريق، بل في أن المرء قد يختار طريقاً آخر وهو يرى الطريق أمامه.

## الفصل الخامس

### حين تصبح النعمة وقوداً للخسارة

الآية الحادية والعشرون

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾

بعد عرض السماوات والأرض والاستغفار والرزق، يكشف نوح آلية اجتماعية خطيرة: الناس لم يكتفوا برفض النبي، بل اتبعوا أصحاب المال والولد. هنا تصبح القوة الاجتماعية منافساً للحقيقة؛ فالناس يميلون إلى من يملكون مظاهر النجاح، حتى لو كانت تلك المظاهر نفسها تزيد أصحابها خسارة.

إن المال لا يثبت صحة صاحبه، وكثرة الأتباع لا تمنح الفكرة برهاناً، والولد والجاه والنفوذ ليست أختاماً سماوية على صلاح الإنسان. لكن النفس تنخدع بالمشهد؛ ترى القوي فتظن أن القوة حجة.

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

﴿لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ يا لعنف المفارقة! الأشياء التي يظنها الناس علامات ربح

قد تكون هي نفسها أدوات الخسارة حين تزيد صاحبها استغناءً واستكباراً. ليست كل زيادة نماء؛ هناك أشياء كلما كثرت في اليد نقص بها القلب.

الآية الثانية والعشرون

﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾

حين يعجز الباطل عن مواجهة الحقيقة في وضخ النهار يبدأ في هندسة الظلال. والمكر ليس مجرد رفض؛ إنه عمل منظم لإبقاء الناس بعيدين عن النور. ولهذا وصفه القرآن بأنه ﴿كُبَّارًا﴾، مكر بالغ الضخامة.

إن الأفكار الباطلة لا تعيش دائماً بقوتها الذاتية؛ أحياناً تحتاج إلى شبكات من المصالح والخوف والتكرار والرموز الموروثة. يصبح الباطل مؤسسة، ويصبح الدفاع عنه جزءاً من حماية المكانة الاجتماعية.

لكن المكر مهما تضخم يبقى فعل مخلوق محدود داخل ملك الله. وهذه هي السخرية العميقة في كل مكر بشري: صاحبه ينسج خيوطه في أرض يملكها الله، ويعقل خلقه الله، وفي زمن يحدده الله، ثم يتوهم أنه خرج من سلطان الله.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

هكذا يظهر صوت الحراسة الاجتماعية للباطل: لا تذر آلِهَتكم. لا تبجثوا، لا تراجعوا، لا تسألوا. إن أكثر ما يخشاه الباطل ليس أن تهاجمه، بل أن يبدأ أتباعه في التفكير فيه.

وقد يبلغ التعلق بالمروروث درجة أن يفضل الإنسان صمًا يعرفه على حقيقة تحرره، لأن الصنم جزء من ذاكرة الجماعة وهويتها ومصالحها. وليس الصنم دائماً حجراً، قد يكون فكرة، أو شخصاً، أو عادة، أو سردية جماعية لا يسمح الناس لأحد بلبسها.

وأخطر الأصنام تلك التي لا يطلق عليها أصحابها اسم الأصنام، لأنهم عندئذ لا يفكرون أصلاً في احتمال أنهم يعبدون شيئاً من دون الله بمعنى التعلق والخضوع الذي لا يليق إلا به.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾

الباطل لا يكتفي بصاحبه؛ لديه نزعة إلى التكاثر. ومن أفسد نفسه ثم جعل فسادها نموذجاً عاماً حمل فوق ضلاله ضلال من جرّهم معه. ولهذا كان أصحاب التأثير أمام مسؤولية

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

أعظم؛ الكلمة التي يقولها المرء لنفسه تنتهي عنده، أما الكلمة التي يصنع بها وعي الآخرين فقد تستمر بعد موته.

ثم يأتي الدعاء: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ بعد رحلة طويلة من الدعوة، لا في بدايتها. وهذه نقطة لا يجوز اقتطاعها من سياقها؛ فالذي يدعو هنا هو نبي ظل يفتح لهم أبواب الهداية لزمن مديد، حتى انكشف بإخبار الله وحكمه أن هذا العناد قد بلغ منتهاه. إنها ليست شهوة انتقام، وإنما لحظة يصبح فيها استمرار الباطل زيادة في إضلال الآخرين، فيكون انكشاف نهايته جزءًا من حماية ما بقي من إمكان الخير.

## الفصل السادس

حين يصل الماء بعد أن جفت القلوب

الآية الخامسة والعشرون

﴿مَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾

تأتي النهاية في آية واحدة خاطفة، كأن القرون الطويلة من المكر تتكش فجأة أمام لحظة القضاء. ﴿مَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾؛ لم يكن الطوفان حادثاً بلا معنى، بل نهاية طريق اختاروا السير فيه رغم الإنذارات المتتابة.

والمشهد شديد المفارقة: الماء من حولهم، ثم النار أمامهم. كل الآلهة التي حموها، وكل الرموز التي تمسكوا بها، وكل أصحاب النفوذ الذين اتبعوهم، تختفي في اللحظة التي يحتاجون فيها ناصراً حقيقياً.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾؛ هذه ليست قصة قوم نوح وحدهم، بل قانون الانكشاف الأخير. أشياء كثيرة تبدو للإنسان قوية ما دام الامتحان بعيداً، ثم تساقط عند الحافة. المال يستطيع أن يشتري أشياء كثيرة لكنه لا يشتري الخلود، والسلطة تستطيع أن

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

تحرك الناس لكنها لا تحرك الأجل، والجماعة تستطيع أن تصفق للباطل لكنها لا تستطيع أن تمنع حكم الله.

وعند النهاية يعرف الإنسان الفرق بين ما كان يظنه سنداً وبين السند الحقيقي، غير أن المعرفة التي تأتي بعد انغلاق باب العمل لا تنقذ صاحبها.

## الفصل السابع

### الدعاء الأخير: حين تنتهي مرحلة البلاغ

#### الآية السادسة والعشرون

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾

هذا الدعاء لا يفهم إلا إذا حملنا معنا كل السورة السابقة: الليل والنهار، والسر والجهر، والاستغفار، والمطر، والمال، والبنين، والسموات، والشمس، والقمر، والأرض؛ لقد استنفدت أبواب الدعوة قبل أن يأتي هذا الدعاء.

إن الرحمة لا تعني أن يستمر الشر بلا نهاية ليأكل كل إمكانية للخير. وفي لحظة ما يكون اقتلاع الفساد حماية للمستقبل. نوح لا يصدر حكماً مستقلاً من غضبه الشخصي، وإنما يبتكلم بعد تجربة طويلة وتحت هداية الوحي.

ولذلك فهذه الآية لا تعطي الإنسان العادي حق تحويل خصوماته إلى أدعية استئصال، بل تعلبه خطورة أن يصل مجتمع إلى مرحلة يصبح فيها الشر مولداً للشر، لا عارضاً يمكن إصلاحه.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

يكشف نوح سبب دعائه: القضية تجاوزت ذواتهم إلى الأجيال المقبلة. صار المجتمع يملك قدرة على إعادة إنتاج الضلال؛ قيمه، ورموزه، وتربيته، وموازن مكانته، كلها تعمل في اتجاه واحد.

وهنا نلحس خطورة البيئة الأخلاقية. الإنسان مسؤول عن نفسه، لكنه لا يعيش في فراغ؛ ما يراه طفل كل يوم يتحول شيئاً فشيئاً إلى تعريفه الطبيعي للحياة. فإذا صار الباطل هو المكرّم، والحق هو المستهزأ به، والكبرياء فضيلة اجتماعية، فإن المجتمع لا يكتفي بامتلاك أخطاء، بل يبدأ بصناعة أجيال داخل الأخطاء.

ولهذا فإن إصلاح المجتمعات أعمق من تغيير أفراد متفرقين؛ إنه إصلاح لما تكافته الثقافة وما تعاقبه، وما تسميه نجاحاً وما تسميه فشلاً.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾

وتنتهي سورة الصراع بالمغفرة. ما أرق هذه النهاية! بعد الحديث عن الغرق والنار والمكر والاستكبار، يعود قلب نوح إلى الكلمة التي ظل يريدها لقومه منذ البداية: المغفرة. لكنه يبدأ بنفسه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾. هذا نبي قضى عمراً في الطاعة والدعوة، ومع ذلك لا يقف أمام الله معجباً بسيرته، وإنما طالباً للمغفرة.

وهنا يسقط وهم خطير يصيب أصحاب العمل الصالح: أن كثرة ما فعلوه تمنحهم مقاماً يستغنون فيه عن الاستغفار. نوح، بعد قرون من الجهاد في الدعوة، لا يقول: رب كافئني على ما صنعت، بل: اغفر لي. إن العارف بالله كلما ازداد عمله ازداد شعوره بالحاجة إلى فضل الله، لأن الأعمال مهما عظمت تظل أعمال عبد محدود في حضرة رب عظيم.

ثم تسع دائرة الدعاء: ﴿وَلِوَلَدَيَّ﴾، فالبر لا ينتهي عند حدود الحياة؛ ثم ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾، حتى البيت يتحول إلى مساحة دعاء؛ ثم تسع الدائرة أكثر: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ الدَّاءِ

وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿١﴾. إن القلب الذي حمل هم قومه قروناً لا يستطيع أن ينتهي إلى ذات ضيقة؛

يفتح دعاءه لجماعة الإيمان كلها.

ثم يأتي الحكم الأخير: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾، أي هلاكاً وخساراً. وهكذا تفصل

خاتمة السورة بين عالمين: عالم يرجو المغفرة، وعالم أصر على الظلم حتى لم يعد يطلب النجاة

أصلاً.

## ما الذي تبقيه سورة نوح في القلب؟

حين تنتهي سورة نوح لا يبقى في الذاكرة الطوفان وحده؛ بل يبقى قبل الطوفان صوت رجل ظل ينادي. وربما كانت هذه أعظم رسائل السورة: لا تنظر إلى نهاية قوم نوح قبل أن تنظر إلى طول الطريق الذي سبق النهاية. لقد كانت الرحمة أقدم من العقوبة، والدعوة أطول من الغرق، والإنذار أسبق من القضاء.

إن السورة تعلمنا أن الله لا يعجل على عباده، وأن من أخطر ما يمكن أن يصيب الإنسان ألا يكون جاهلاً بالحق، بل أن يتحول إلى رافض محترف له؛ يسمع فيسد أذنه، ويرى فيغطي وجهه، ويدعى فيفر، ويُعرض عليه الاستغفار فيتشبث بصنمه. عندئذ لا يعود الظلام شيئاً وقع عليه من الخارج، بل يصبح مشروعاً داخلياً يبينه كل يوم.

وتعلمنا السورة كذلك أن الداعية ليس مالك النتائج. نوح عليه السلام لم يقس صدق رسالته بعدد من استجاب له، ولم يقل بعد أعوام الرفض إن الطريق خاطئ لأن الناس لم يدخلوا فيه. ظل يغير الأسلوب، لا الحقيقة؛ والوقت، لا الوجهة؛ والتبرة، لا المبدأ. ليلاً ونهاراً، جهراً وإسراً، وعداً وإنذاراً، حديثاً عن القلب وحديثاً عن السماء، حتى بلغ البلاغ غايته.

سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ الدَّاءِ

وتضع السورة أمامنا سؤالاً لا ينبغي أن نغمر به سريعاً: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾؟ ربما

يكون هذا هو السؤال الذي يجمع السورة كلها. لماذا يصبح للناس وزن في نفوسنا أكبر من

وزن أمر الله؟ لماذا نخشى خسارة المال أكثر من خسارة القلب؟ لماذا نرتب حياتنا على

أساس آجال كثيرة، وننسى الأجل الذي إذا جاء لا يؤخر؟ لماذا نرى الشمس والقمر

والأرض والجسد ولا تسمح لهذه الآيات أن تخلق فينا الخشوع الذي خلقت لتوقظه؟

وسورة نوح تقول لنا أيضاً إن الاستغفار ليس هامشاً في الطريق، بل باب عظيم من أبواب

العودة؛ لأن الإنسان مهما تراكت عليه طبقات البعد يستطيع، ما دام في زمن المهلة، أن

يدير وجهه نحو ربه. لقد كان نوح يعرض الاستغفار على قوم بلغ عنادهم ما بلغ؛ وكأن

الرسالة لنا: لا تجعل خطيئتك حجة على عدم رجوعك، فإن الذي يفتح لك الباب يعلم قبل

أن تطرقه مقدار ما تحمل من الخطايا.

ثم تأتي النهاية لتكسر أوهام الحماية: الأصنام لا تنصر، والمال لا ينصر، والولد لا ينصر،

والجماعة لا تنصر؛ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾. ما أكثر ما يملأ الإنسان حياته

بأشياء يظن أنها جدران أمان، حتى تأتي لحظة يحتاج فيها إلى الحائط الذي لا يسقط، فلا

يجد إلا الله.

## سُورَةُ نُوحٍ | حِينَ تَسْتَفِدُّ الرَّحْمَةُ أَبْوَابَ النَّدَاءِ

ولذلك لا تنتهي السورة بالماء، بل بالدعاء؛ ولا تنتهي بالخوف، بل بالمغفرة؛ ولا تنتهي بنوح وهو ينظر إلى الذين هلكوا، بل بنوح وهو يفتح قلبه لنفسه ووالديه والمؤمنين والمؤمنات. كأن القرآن يريد أن يقول: بعد أن ترى المصير كله، لا تجعل أول استجابتك أن تدين الآخرين، بل قل قبل كل شيء:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾.

فهذه هي النجاة التي تبدأ من الداخل؛ أن يظل الإنسان، مهما صلح، محتاجاً إلى المغفرة، ومهما طال طريقه، خائفاً من أن يضل، ومهما كثرت نعمته، عالماً أن المال والولد لا يساويان شيئاً إذا خسرت الروح ربها.

وهكذا تخرج من سورة نوح وأنت تشعر أن الطوفان الحقيقي لا يبدأ حين ترتفع المياه، بل حين يغرق القلب في الكبر؛ وأن السفينة الحقيقية تبدأ لحظة يستجيب الإنسان للنداء قبل أن يفوت زمن النداء؛ وأن أعظم نجاة في هذه الدنيا أن يبقى في القلب من وقار الله ما يجعله، كلما سمع صوته يهتف به من خلال الوحي، لا يجعل أصابعه في أذنيه، بل يفتح له أبواب روحه ويقول:

سمعنا، وأطعنا، وغفرانك ربنا، وإليك المصير.